ريتا عوض

الاسطورة في عبقر شفيق المعلوف

كانت العودة الى الاساطير القديمة احدى السمات التي تميز بها الشعر الحديث . وكان الشعراء والفلاسفة الرومنطيقيون الالمان ، وبخاصة شلنغ وشليغل وهردر من اول من دعا الى استخدام الاسطورة في الشعر في مطلع القرن التاسع عشر . فقال شلنغ ان الاسطورة موضوع الفن كما ان الافكار موضوع الفلسفة . وعرّف شلنغ الاسطورة بالرمز فقال انها ليست قصة تروي حكايات الآلهة ، بل الصورة العينية المطلقة ، اذ تحمل معنى بذاتها وتظل نمطا رمزيا ازليا (١) . وعرّف شليغل الاسطورة بانها نظرة جديدة الى الحياة ترفض التفكير المنطقي وتعود الى « فوضى الخيال الجميلة ، السديمية الاولى في الطبيعة الانسانية ، التي لا اعرف لها بعد رمزا اكثر جمالا من تجمع الآلهة القديمة » (٢) . كما أشار هردر الى طريقة استخدام الاسطورة في الشعر فقال : ان على الاسطورة أن ترتبط عضويا بالقصيدة ليس على سبيل جهد واع لملء فراغ . لان الاسطورة في الشعر ليست مجرد بناء قصصي ، بل هي حياة القصيدة (٣) .

كان ما وصلنا من الشعر العربي القديم خلوا من الاسطورة من حيث هي قصة ، ولم ترد فيه ـ بشكل عام ـ أسماء شخصيات اسطورية ، مع ان العرب عرفوا الاساطير في جاهليتهم ، كما يتبين من « كتاب الاصنام » لابن الكلبي ، ومن الشعائر التي احاطت بمراسم الحج الجاهلية كما يرويها ابن حبيب في « المحبر » . ولكن الشاعر العربي الحديث عاد الى الاسطورة كما عاد اليها جزء كبير من الشعر العالمي الحديث . ولعل شفيق المعلوف (٤) كان من أوائل من استخدم الاسطورة في شعرنا الحديث في مطولته « عبقر » .

عاد شفيق المعلوف الى الاساطير العربية القديمة ، وكتب بحثا حاول ان يؤكد فيه ان العرب عرفوا الاساطير في جاهليتهم معتمدا على بعض الكتب العربية القديمة وعلى عدد من البحوث الاجنبية التي توفرت له في مهجره . ونظم المعلوف ما توفر له من قصص أسطوري ونشرها في ستة اناشيد عام ١٩٣٦ بعنوان « عبقر » . ثم اعاد نشر الكتاب عام ١٩٤٩ بعد أن أضاف اليه ستة اناشيد اخرى (٥) .

يقول المعلوف في مقدمة النشيد الاول : « زعموا ان عبقر موضع مجهول هو ارض الجن . ورووا ان لكل شاعر شيطانا يوحي اليه الشعر » (٦) . ويستهل الشاعر القصيدة برؤيا يتجلى له فيها شيطان شعره ويحمله ويطير به الى وادي عبقر حيث يلتقي الجن والشياطين التي اختارت عبقر مسكنا لها . وليست هذه الرحلة الى عالم الغيب جديدة في الادب العربي . فقد رحل ابو العلاء المعري الى الجنة والنار ، والتقى الشعراء وحادثهم في « رسالة الغفران » . والتقى ابن شهيد الاندلسي تابعه الجني في « رسالة التوابع والزوابع » فحمله الى ارض الجن حيث حادث توابع الشعراء من الجنيين . ولعل المعلوف كان اقرب الى ابن شهيد منه الى أبي العلاء في قصيدته هذه . ف « رسالة التوابع والزوابع » تقوم على الافتراض ان لكل شاعر جنيا يوحي اليه قصائده ، وهذا ما يفترضه شفيق المعلوف في « عبقر » (٧) .

René Wellek , A History of Modern Criticism : (١)
1750 - 1950 (New Haven , 1955) , V.II. P. 77.

(٢) Ibid . pp . 16 - 17 .

(٣) Philip Wheelwright , « Myth » , Encyclopaedia of Poetry and Poetics (New Jersey , 1965),P. 541 .

(٤) من مواليد زحلة سنة ١٩٠٥ . حرر في جريدة « ألف باء » مدة ثلاث سنوات . هاجر الى البرازيل سنة ١٩٢٦ ، وما زال في المهجر . ترأس « العصبة الاندلسية » في سان باولو . عن رياض معلوف « شعراء المعالفة » (بيروت ، ١٩٦٢) ص : ٣٤ .

(٥) الاناشيد المضافة الى الطبعة الثانية هي : نهر الغي ، وادي سجين ، الهوجل والهوبر ، حلم هراء ، العنقاء ، أحاديث خرافة ، عبقر ، حاشية ص : ١١

والطبعة الثانية من منشورات العصبة الاندلسية في سان باولو، البرازيل . وهي التي ساستخدمها في هذا البحث . وتقع في ٣٤٣ صفحة من القطع الكبير تحتل المقدمة « تمهيد في علم الاساطير » الصفحات المائة والاربعين الاولى منها . وتنتهي المطولة الشعرية باناشيدها الاثني عشر في صفحة ٣٢١ . وقد كرّس الشاعر الصفحات الاخيرة من الكتاب للفهارس .

(٦) عبقر ، ص : ١٤٤ .

(٧) يقول ابن شهيد في « رسالة التوابع والزوابع » (بيروت، ١٩٦٧) : « فقال (زهير بن نمير الجني تابع ابن شهيد) حلّ على متن الجواد . فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدو فالدو ، حتى التمحت ارضا لا كارضنا ، وشارفت جوا لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال لي : حللت ارض الجن أبا عامر ... فامال العنان الى واد من الاودية ذي دوح تتكسر اشجاره وتترنم اطياره » (ص : ٩١) . ويصف المعلوف انطلاق الشيطان به الى وادي عبقر (ص : ١٥٣ ـ ١٥٤) بقوله :

وانطلق الشيطان في الجو بي ... كانه النيزك او اسرع
مكنت من فقاره قبضتي ... مندفعا اصنع ما يصنع
حتى تهاوى بي الى موضع ... ما راقني من قبله موضع
غمائم زرق على متنها ... منازل جدرانها تسطع
تثور في ابراجها ضجة ... بها يضيق الافق الاوسع

وكتاب « عبقر » قصيدة واحدة طويلة في أناشيد . يستهل الشاعر قصيدته بنشيد أول : « في طريق عبقر » ، حيث يظهر له شيطان شعره ويحمله طائرا به الى وادي عبقر . ويصف أرض الجن بشياطينها وثعابينها وغيلانها . ويطوف الشاعر يقوده شيطانه في مجاهل الوادي ويستطلع أحوال الجن :

أقزام جن في سفوح الربى جيشهم طاغية عات
ان أزعجوا الزحف تراهم علوا أغرب أصناف المطيات
فمن يرابيع ومن انعم الى ديوك وعظايات
مراكب للجن يرمي بها فرسانها صدر المفازات
من كل قزم لا يمس الثرى برجله الصفرى المدلاة
نشابة القنفذ مزراقه وترسه قحف السلحفاة (٨)

في هذه الابيات يخلق شفيق المعلوف عالما غريبا يبتعد فيه عن الصور المألوفة في الحياة اليومية ، فلا يعود الشعر محاكاة لصور كائنة ، بل يضحي خلقا لعالم لم تره عين من قبل ، ولده خيال الشاعر . فالمعلوف يجسد الجن فيمسخها أقزاما . فان ارادت حربا فهي تتخذ الفئران والسحالي والديوك مطية ، وريش القنفذ رمحا ، وقحف السلحفاة ترسا . فتكون الصورة الاولى التي يقدمها شفيق المعلوف للجن صورة ممسوخة هزلية .

وفي النشيد الثاني :« الاله الناقص » يلتقي الشاعر عرّافة عبقر ، وهي عجوز شمطاء تلف ثعبانا على وسطها وينبعث الدخان من شعرها ويلتهب الشرر في عينيها . فتنتفض غضبا حين تراه ، وتهرب الجن وتختبىء بين أغصان الشجر . وتتحدث العرّافة فتحقر الانسان وتقول انها تخاف على الثعبان من غدر البشر :

فليس هذا الصلّ بالافعوان
بل انت يا انسان
فارجع الى وكرك (٩) .

وتقول ان الانسان ظن نفسه أعلى من ربه ، وحسب عيوبه فضائل ، فبقي على ضلاله واصبح حب الذات أساس كل عيوبه :

جعلت نفسك أعلى
في الارض من ربك
وخلت دربك سهلا
فسر على دربك
حسبت عيبك فضلا
يا صلّ ويحك هلا
خرجت من ثوبك (١٠)

فالشاعر لا يقدم في هذا النشيد سوى حكم ذهنية مجردة لا يبلغ فيها صفاء التصوير الشعري . كأن المعلوف يسعى الى ابلاغ قارئه ان الجن تخاف الانسان فيعكس الرأي الشائع ان البشر يخافون الجن. ويؤكد نظرته في ان الانسان شرير اصلا . فلا يقدم هذه الفكرة مجسدة بالصورة والحدث ، بل يأتي بها حديثا مجردا تقوله العرافة.

ويتحدث شفيق المعلوف في النشيد الثالث : « حسرة الروح » عن اميرة الجن التي البت عليها قبائل الجن بعصيانها . فقد مستها روح ليست من عبقر ، فثارت على روحانيتها ، متمنية ان تصير بشرا كي يتسنى لها ان تحب وتشبع شهوتها . وتتجلى ماساة الجنية في المقطع الاخير من نشيدها حيث تقول :

ما نفع روح خالد عشت فيه
ما زلت لم أحضن ولا أحتضن
يا حامل الجسم الا إعطنيه
وخذ اذا شئت خلودي ثمن
روحي لا يبلى فمن يرتضيه
احمل ما في جسمه من شجن
وشاحي الناري من يشتريه
فانني أبيعه بالكفن ... (١١)

فالشاعر هنا يقابل بين ضدين لا يجتمعان : الخلود الروحاني واللذة الجسدية الانية . أن يجمع كائن الاثنين معا : فالانسان الذي نال الجسد للذائه فقد الخلود ، الجنية التي اكتسبت الخلود حرمت اللذة الجسدية . وكلاهما ناقص يرفض نصيبه ويتمنى ما ليس له . فالانسان يسعى الى الخلود والجنية تلعن خلودها وتتمنى اللذة الجسدية بكل ما فيها من الم وما يتلوها من موت وفناء . فالماساة ليست في افتقاد اللذة او انتهاء الحياة بل في السعي وراء ما لا يدرك والافتتان برجاء لا ينال . وحين يصبح المحال هدفا تتكشف الماساة .

وفي النشيد الرابع : « نهر الغي » يلتقي الشاعر سرحوب الاعمى وهو شيطان يسكن الانهر والبحار ، فيقوده في سرداب عميق كثير الشعاب ، فيبرز المعلوف المفارقة : اعمى يقود بصيرا . ويسخر سرحوب من البشر المبصرين فيخاطبهم قائلا :

ما كنتم تخبطون
في لجة الآثام
لو انكم تبصرون
مثلي في الظلام (١٢)

وكأن شفيق المعلوف يضع هذا النشيد باكمله كي يصل الى هذه الحكمة التي ينتهي بها النشيد ، وهي ان الانسان اعمى ولو كان مبصرا ، لانه لا يفرق بين الخير والشر .

وفي النشيد الخامس : « وادي سجين » (١٣) يذهب الشاعر الى واد من اودية عبقر ويلتقي ابناء ابليس الخمسة (١٤) . ينفجر اولا بركان وتحترق الظلمة ويظهر ثبر شيطان الحروب ، يتمايل مخمورا، ويقهقه منتصرا كلما اشتعلت الحروب وتقاتل ابناء البشر . يقول :

طغى بني الوجود فانشأ الاوطان
وخطط الحدود سياجها النيران
حتى اذا ما الجنود
ماتوا فدى الرايات
داس بقايا البنود
وطاف بالاموات
فانتزع القيود
من ارجل العبدان
ولفها تيجان
على رؤوس الغزاة (١٥)

هنا يعد شفيق المعلوف تقسيم الارض الواحدة ، بالحدود ، الى اوطان ـ عملا شيطانيا ، لانه علة جميع الحروب . فالارض ،لو كان الخير مسيطرا ، وحدة لا تتجزأ ، وليست الحدود بين بقعة واخرى سوى افتعال خارجي شرير ، وليس طبيعة نابعة من تركيب الانسان او الارض . فيخرج المعلوف الى نظرة انسانية شاملة ،تلغي الاختلافات القومية والعرقية وتأخذ بوحدة الطبيعة الانسانية .وهذه

(٨) عبقر ، ص : ١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٩) م.ن. ص : ١٦٢ .
(١٠) م . ن . ص : ١٦٣ .
(١١) م . ن . ص : ١٧٨ .
(١٢) م . ن . ص : ١٨٥ .
(١٣) يقول المعلوف في مقدمة النشيد « ان سجين واد في جهنم قيل هو محل ابليس وجنوده » .
(١٤) ويقول في مقدمة هذا النشيد ايضا « كان لابليس خمسة ابناء هم ثبر وداسم واعور وزلنبور ومسوط » .
(١٥) م . ن . ص : ١٩٣ .

عـودة الى نظرة بدائيـة لا تأخذ بالفروقات الجزئية . والحرب،كما يصورهـا شفيق المعلوف ، لعبة قذرة لا ينتصر فيهـا سوى ثبر : شيطـان يسخـر من الجانب الذي يظـن نفسه منتصرا فيخلع القيود من ارجل الموتى المهزومين ويزيـن بها رؤوس الغزاة « المنتصريـن » . وتبرز المهزلة : ليس التاج سوى قيـد انتقل من قدمي هذا الـى راس ذاك .

ويلتقي الشاعر ثاني ابناء ابليس ، داسم ،ابليس النقائص،الذي يقول انه يضع النقائص في نفوس البشر ويكسوها حللا براقة :

وانقلب العنـاد
بين الورى حزمـا
وصـار الاستبـداد
فـي عرفهم عزما
واصبح الجشـع
اسمـى مزايـا الـروح
لمـا ارتـدى الطمـع
مـلابس الطمـوح (١٦)

يـرى المعلوف هنا ان كل مزية تخفي وراءها نقيصة . فليس الحزم في حقيقته سوى عناد ، والعزم سوى استبداد ، والطموح سوى طمع وجشع . ولم يستطع المعلوف ، على مـا يبدو لـي ، ان يجسد فكرته هذه بالصورة الحسية فجاءت ذهنية مجردة ، لا تفترق عن النثر العادي سـوى بالوزن والقافية .

ثم يلتقي الشاعر ، اعور ، ابليس الشهوة الذي يقول انه يشعل النار في عيني العاشق ودمه ويقوده الى الهلاك والدمار :

فليحس اهل الفجـور
كاسي انـا العفريت
فـان تكن من نـور
فخمري كبريـت
وليخلد الناس الى وحيي
فهو الذي يحيـي
وهو الـذي يميت (١٧)

يقدم اعور الخمر كبريتا ، يورث الاحتراق والموت بدل الفرح والنشوة . وتنتهي لحظات الحياة المكثفة بموت سريع .

ويظهر زلنبور شيطـان المال ، يختال بين السنة النيران المتراقصة على رنين الذهب فتهتز خواصر الحور راقصة . يقول :

فهـو اذا ما نصـب
ميزانه فـي يديـه
تنشب حرب الذهب
والـروح فـي كفتيـه

فكفـة جوفـاء مملـوءة ... من ذهب وكفة خاليـة
شدت بها الارواح نحو العلى ... فرجحت بالذهب الثانية (١٨)

ينصب زلنبور ميزانه ويضع الذهب في احدى كفتيه والروح في الكفـة الثانية . فترجح الكفة التي تحمل الذهب وتهزم الروح امـام اغراء المادة الذي يزرعه ابليس في قلوب البشر .

واخيرا يلتقي الشاعر مسوط ، ابليس الكذب ، ويخبره شيطانه ان ابناء ابليس لا يخرجون الـى ارض بني البشر الا اذا ركب مسوط قدامهم يرفع بند الكذب . يقول :

(١٦) م . ن . ص : ١٩٧ .
(١٧) م . ن . ص : ٢٠٢ .
(١٨) م . ن . ص : ٢٠٧ .

وسـار راقصا
رايتـه المشرعـه
فسـار خلفـه
اخوته الاربعـة (١٩)

فيبين شفيق المعلوف بذلك ، ان الكذب هو منطلق جميع الشرور واساسهـا .

وفي النشيد السادس : « الهوجل والهوبر » (٢٠) يلتقي الشاعر هذيـن الشيطانين فيقول ان الاول شرير والثاني صالح . ويروي انه شاهـد الهوجل يمشي الى شجرة مثمرة ، مـا زالت معظم ثمارها فجة خضراء ، فتلتقي عينه ثمرة ناضجـة على غصن مثقل بالثمر الفـج، فيكسر الغصن باكمله كـي يلتقط الثمرة الناضجة . فياكلهـا بنهـم ويبصق نواتهـا بغضب ، ثم يقول :

فلم اعتـم ان ارى الهوبـرا
يلتقط النواة مستبشرا
وينحني كانـه في صلاة
فينبش الثـمـرى
ويـزرع النـواة (٢١)

فالهوجل يكره جميع مظاهر الحياة ويحـاول القضاء عليهـا . والهوبر يزرع النواة ليخلق حياة جديدة . وقد استعـار المعلوف صورة الثمـار والاشجار للايحاء الشعري ، فاصبح هوجل الذي يفسد الايحاء صورة للموت والدمار ، واصبح هوبر ، الذي يحسن الايحاء مصدرا للحياة . وكان المعلوف هنا يعادل بيـن الشعر والحياة .

وفي النشيد السابع :« حلم هراء » (٢٢) يروي شفيـق المعلوف رؤيا امية بن ابي الصلت ،(٢٣) فيقول ان هراء هـو من انزل هذا الحلم المزعج عليه . ويقول هراء ان امية احس بقلب نبي بين جنبيـه فظـن انه موحى اليه من الله ، فجاءه هراء في الحلم وانزل طيـرا شق صدره ووضع له قلبه امـام عينيه . فراى امية انه ينطوي على الحقد والشر والكبرياء ، ولم يجـد للفضائل فيه اثر . فعلم انـه انسان شرير لا يختلف عن غيره فتخلى عن نبوته . يقول المعلوف فـي نهايـة النشيـد :

ومال مغلوبا علـى امره ... اميـة وغـل في مضجعـه
فكشف الطائر عن صدره ... وارجع القلب الى موضعه
حتى اذا اميـة اضحـى ... الوى بكفيـه على جنبـه
فلم يجـد دما ولا جرحا ... لكن احس الجرح في قلبه(٢٤)

يستلهم شفيق المعلوف كتاب الاغاني في هذا النشيد . ولكـن الروايـة التي اوردهـا الاصبهاني كانت اكثر ايجازا وتكثيفـا واعظـم

(١٩) م . ن . ص : ٢١١ .
(٢٠) يقول في المقدمة « للشعـر شيطانان هما الهوبر والهوجل فالاول يحسن الايحاء والاخر يفسده » .
(٢١) م . ن . ص : ٢١٩ .
(٢٢) « زعموا ان هراء شيطان موكل بقبيح الاحلام » .
(٢٣) شاعر جاهلي بلغ الاسلام ولم يسلم . كـان في جاهليتـه موحدا ، واراد ان يكون نبيـا فياتي بديـن يدعـو الـى التوحيد . الاصبهاني . الاغاني (بيروت ، ١٩٦٢) ،ج ٤ ،ص : ١٢٦ ـ ١٣٤ . يورد المعلوف في مقدمة هذا النشيد روايـة من الاغاني جـاء فيهـا : « نام اميـة بن ابي الصلت فانشق جانب من السقف في البيت ، واذا بطائرين قد وقع احدهما على صدره، ووقف الاخر مكانه .فشق الواقع صدره فاخرج قلبه فشقه فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: اوعى ؟ قال : وعى . قال : اقبِل ؟ قال : ابـى قال ، فرد قلبـه في موضعـه » .
(٢٤) عبقـر ، ص ٢٣٠ .

ايحاء مما نظمه المعلوف . فالاصبهاني لم يفسر روايته ولم يختتمها بحكمة مجردة ـ كما فعل المعلوف ـ فجاءت غنية بالاحتمالات . وتوحي رواية الاصبهاني بان امية في لا وعيه ـ في الحلم ـ يرفض النبوءة ، مع انه واعيا كان يتمنى لو كان نبيا . وهو يرفضها دون سبب يمكن تعليله او شرحه . وقد اساء المعلوف تعليل النبوءة حين خلى امية يرفضها لانه شرير . فالنبوءة لا تقبل او ترفض لاسباب ، بل هي وحي يشتعل في قلب ولد نبيا . وقد كان للحوار بين الطائرين في رواية الاصبهاني تاثير كبير افتقدته رواية المعلوف الذي الغى وجود الطائر الثاني ونقل الحوار بين امية وهراء.

ويلتقي الشاعر كاهني عبقر : شق وسطيح في النشيد الثامن : « حكمة الكهان » (٢٥) ويصف الشاعر كلا من الكاهنين ، ويقول انهما يحمدان الله لانه خلقهما على هذه الصورة . استل الله العظام من باطن سطيح وملأ الفراغ من حكمته ، وسلخ النصف الشرير من شق وابقى على النصف الخير . ويطلب الشاعر النصيحة من الكاهنين ، فيقول :

يا كاهني عبقر هل حكمة ... اعدها للغد بين العدد
ارسلها فوق رؤوس الورى ... منشورة على غمام الجلد
يلقني موج التقادير او ... اكتبها بالنار فوق الزبد (٢٦)

فيلقي اليه سطيح بسيل من النصائح والحكم لا تحتاج ـ لسذاجتها ـ الى جني ان ياتي بها . يقول مثلا :

تغيب في الافق طيوف الرياح
ممتطيات صهوات السحب
ويعقب الليل شروق الصباح
ويخلف الشمس طلوع الشهب
وكل من في الارض من اغبياء
يجرون كالعميان خلف القدر (٢٧)

لم يستطع سطيح ان يكشف للشاعر حقيقة غائمة ، او ان يفتح له دربا جديدة . فلا بد ان الشاعر كان يعرف ـ كما يعرف قراؤه ـ ان الليل والنهار يتعاقبان وان الاغبياء عبيد للقدر . ولم تختلف عن هذه نصيحة سطيح للشاعر بالابتسام :

على فمي ابتسامة هازئة
تفيض بالسخرية الموجعة
اواجه النسائم الهادئة
بها كما اواجه الزوبعة
يا واقف العمر على حكمة
مركونة كالغيم خلف الجباه
الحكمة الحكمة في بسمة
تمحض الهزء بها في الشفاه (٢٨)

ثم يتحدث الكاهن شق ، فيبرر فرحه بخلقه على هذه الصورة، فيقول مثلا :

ما ضرني والواحد السرمد
لم يحب جسمي بيدين اثنتين
ما زال للقضاء فوقي يد
فليس بي من حاجة لليدين (٢٩)

ويقول :

ان لم تك العينان فياضتين
كلتاهما بحكمة مشرقة
هيهات تستنير عين بعين
ان لم تكن احداهما مغلقة (٣٠)

ونلاحظ ان هذا النشيد ليس سوى مجموعة من الحكم والنصائح الساذجة ، وليس سوى تبرير للصورة التي ذكرت في المصادر لشق وسطيح . وليس الشعر مجالا للتبرير والشرح، كما انه ليس مجالا للنصائح والحكم . وهذا ما لم يستطع شفيق المعلوف ان يدركه على ما يبدو .

وفي النشيد التاسع : « ثورة البغايا » يلتقي الشاعر حوريات عاريات في عبقر ، فيحاولن اغراءه ببياض اجسادهن . ويخبره شيطانه ان الله القى بنات الهوى الى النار ، وسامهن الخسف والهوان فثرن في الجحيم ،وحاولن اغراء سكان عبقر . يستمع الشاعر الى نشيد البغايا اللواتي يلمن الله على فجورهن لانه خلقهن ذوات شهوة جائعة . ويبررن الفجور بطاعة الله ،لان انقيادهن خلف شهواتهن تحقيق لرغبة الله في ما خلق . وتثور الحوريات على الله الذي جعل العذاب جزاء الاستسلام للملذات ، فيقلن :

ثرنا عليه حينما سامنا
عسفا فلم نصبر على عسفه
قد حشد اللذات قدامنا
وجيش العذاب من خلفه
افتى بان نقوم في ربقنا
بجزية العبد الى ربه
هو الذي اذنب في خلقنا
وراح يجزينا على ذنبه ..(٣١)

وفي النشيد العاشر : « العنقاء » يصف المعلوف الطائر الخرافي الضخم الذي اسماه العرب بالعنقاء ، ويجعل الرخ والفينق فرخيه، ويصفهما بالعظمة والقوة . ويتحدث عن محرقة الفينق فيصف احتراقه بنار الشمس وعودته بالموت الى الحياة . ويختتم النشيد بقوله:

ما عجبي لفينق موقد ... لنفسه النار على المحرقة
ولا لرخ راسه في العلي ... ورجله على الثرى موثقه
ولا لعنقاء وقد امعنت ... في نومها الدهري مستغرقه
بل لطيور مثلها ضخمة ... اوكارها الجماجم الضيقه (٣٢)

ماذا قدم شفيق المعلوف في هذا النشيد ؟ لقد نظم ما جاء في المصادر حول هذه الطيور الثلاثة (٣٣) ، ولم يستطع ان يربط الصور

---

(٢٥) يقول المعلوف في مقدمة النشيد « سطيح وشق كاهنان اولهما كان لحما بلا عظام والاخر شق انسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة » .

(٢٦) م . ن . ص : ٢٣٦ .

(٢٧) م . ن . ص : ٢٣٨ .

(٢٨) م . ن . ص : ٢٤٠ .

(٢٩) م . ن . ص : ٢٤٢ .

(٣٠) م . ن . ص : ٢٤٣ .

(٣١) م . ن . ص : ٢٥٧ .

(٣٢) م . ن . ص : ٢٦٩ .

(٣٣) جاء في مقدمة النشيد العاشر : « العنقاء طائر خرافي عظيم معروف الاسم مجهول الجسم » . و« كان الرخ طائرا عظيم الخلقة متى طار غطى عين الشمس فخفيت واظلم الجو » . وفي الاساطير اليونانية ان الفينق طائر خرافي يقطن في الصحاري العربية ويعمر اجيالا كثيرة . وكان يحرق نفسه حيا ثم ينبعث من نفس رماده » .

التي جاء بها بمدلولات تخرج بها من محدوديتها الى حقائق مطلقة تكسبها عمقا وغنى،فلم تعد الصورة تحمل ايحاءات متعددة بل اقتصرت على مدلولها المباشر . ويعود المعلوف في المقطع الاخير من النشيد الى اسداء الحكم فيقول انه لا يعجب لجميع ما في الاساطير من خوارق ، لكنه يعجب لان الناس ذوي العقول الصغيرة ، او الجماجم الضيقة ـ كما يسميهم ـ يصدقون هذه الاساطير . ويبدو ان عجب المعلوف ناتج عن سوء فهم لطبيعة هذه الاساطير . فهو ياخذ بمعناها الحرفي فلا يصدقها بمدلولاتها المباشرة، ويخفق في ان يرى فيها رموزا تتجاوز المعاني الضيقة الى حقائق انسانية مطلقة، فيصبح موت الفينق وانبعاثه ، مثلا ، تعبيرا عن رغبة دفينة داخل النفس الانسانية تسعى الى الخلود فتؤمن بالانبعاث بعدالموت وتعبر عنه اسطورة فتغدو الاسطورة تحقيقا في عالم الخيال والفن لما عجز الانسان عن تحقيقه في عالمه اليومي ، وتكون تعويضا عما فاته في الواقع لان الفن لا يعود اقل صدقا من حقائق الحياة اليومية ،ان لم يكن اكثر صدقا منها .

وفي النشيد الحادي عشر : « احاديث خرافة » (٣٤) يروي خرافة للشاعر ثلاث اساطير من الجزيرة العربية . الاولى اسطورة نصر بن دهمان الذي عاد شابا بعد ان شاخ، فغدا بياض شعره سوادا، ونبتت اسنانه . ويقول ان جنية هي الشعرى الغميصاء (٣٥) ظهرت له في منامه ، واعادت اليه الشباب :

سالتها من انت قالت انا ... انا الغميصاء انا الشعرى
اختي اليمانية اخلت يدي ... وعبرت للضفة الاخرى
والجن بعدي التقطت ادمعي ... ونظمت عقودها الحمرا (٣٦)

يجمع شفيق المعلوف بين اسطورتين في هذا المقطع من النشيد: اسطورة نصر واسطورة الشعرى . والجمع بين عدة اساطير ، تكنيك شعري جيد ، لانه يغني كلا الاسطورتين ، فينتج عن تفاعلهما مدلولات جديدة لا تحملها اي من الاسطورتين منفردة . من هنا يطرح السؤال : ماذا افاد المعلوف من الجمع بين هاتين الاسطورتين ؟يبدو لي ان الجمع بين اسطورتي نصر والشعرى لم يخلق جديدا ، لان الاسطورتين لم تتفاعلا وان تجاورتا . اذ لم يكن الجمع بين هاتين الاسطورتين امرا حتميا . بل كان يمكن للمعلوف ان ياتي بأية جنية اخرى ـ كاناهيد ، مثلا ، التي يتحدث عنها في النشيد نفسه ـ دون ان يؤثر ذلك على بناء القصيدة . وليس ذكر الشاعر لقصة الغميصاء مع اختها سوى حديث نافل لا يرتبط ارتباطا حتميا ببناء المقطع الشعري . من هنا لم يفعل المعلوف شيئا سوى ان كدس مجموعة من الاساطير ،ولا اظن انه كان يقصد الى اكثر من ذلك . وليس هذا ـ على ما أعلم ـ من اهداف الشعر .

والاسطورة الثانية التي يرويها خرافة للشاعر هي اسطورة

(٣٤) يقول في مقدمة النشيد « كان خرافة رجلا من عذرة زعموا ان الجن استهوته فلبث فيهم زمانا ثم لما رجع اخبر بما رأى منهم فكذبوه » .

(٣٥) يقول في مقدمة النشيد : « كانت الشعرى اليمانية مع الشعري الشامية ففارقتها وعبرت المجرة فسميت الشعرى العبور. فلما رات الشعري الشامية فراقها اياها بكت عليها حتى غمضت عينها فسميت الشعرى الغميصاء ».

(٣٦) م . ن . ص : ٢٧٨ .

اناهيد (٣٧) . يقول ان اناهيد كانت امراة بغيا عشقت فارسا مر بها، وامضى معها ثلاثة ايام ، ثم رحل عنها فحاولت اللحاق به فلم تبلغه . فظهر لها الاله هبل الاكبر وقال لها :

هذا عقاب الهجر فليعتبر ... ان ذاق طعم الحب من يفجر (٣٨)

وطلبت من هبل الغفران فرق قلبه وقال لها :

حبك يا هذي كما شئته ... قلب السماوات به اجدر (٣٩)

وحولها هبل الى نجمة في السماء . ولا يفعل المعلوف هنا سوى ان ينظم ما جاء عند الجاحظ ، فيحوله الى قصة مبررا سبب مسخ اناهيد نجما .

والاسطورة الثالثة التي يرويها خرافة للشاعر هي اسطورة لقمان (٤٠) . يقول ان هبل طلب من لقمان ان يتمنى امرا فيعطيه اياه. فسال اقصى عمر يعطى لانسان . فمنحه هبل مدى اعمار سبعة نسور. وانقضت اعمار النسور الستة ، وبقي الاخير فسماه لقمان لبد ، ليكون كالدهر ازليا . وينهض لقمان ذات يوم منهوك القوى ، فينظر النسر طريحا ، فيصبح به ان ينهض .فيحاول النسر ولا يستطيع . ويهوي من عل ويفارق الحياة ، فيتوفى لقمان . وينهي المعلوف النشيد بقوله :

لا غرو ان ختم
طريقه العابر
فهو له قدم
وهي لها اخر (٤١)

وفي النشيد الثاني عشر والاخير :« العبقريون » ، يرى الشاعر اكواما من الرفات فيخبره شيطانه ان هذه رفات الشعراء يحملها شياطينهم الى عبقر . ويتاثر الشاعر للمنظر فيتساءل لماذا ياتي الموت كلما راى نفوسا سعيدة ؟ وهل الموت نهاية ؟ فيسمع صوتا منبعثا من بين الرفات ، يقول ان جسد الشاعر يموت ويظل حلمه حيا في احلام الناس :

تا لله لا الاصنام ... ولا الخرافات
تهز منا العظام ... ونحن اموات
تلاشت الاوهام ... واهلها ماتوا (٤٢)

ولكن ما يهز رفاتهم ـ كما يقولون ـ هو الحب :

ذاك هو الحب لصيق الثرى
ما لجناحي عزمه نهض

(٣٧) يقول في المقدمة عن الجاحظ « جعل العرب الزهرة امراة بغيا مسخت نجما وكان اسمها اناهيد » .

(٣٨) م . ن . ص : ٢٨٨ .

(٣٩) م . ن . ص : ٢٨٩ .

(٤٠) جاء في مقدمة هذا المقطع « وكان لقمان فيمن راسته عاد على وفدها الى مكة فجاءه نداء من السماء ان سل ما شئت فنعطي ما سالت . فسال عمر سبعة انسر فاعطي ذلك . وكان فرخ النسر يعيش خمسمائة سنة فاذا مات أخذ اخر مكانه حتى هلكت كلها الاالسابع سماه لبد ، ولبد بلسانهم الدهر » .

(٤١) م . ن . ص : ٣٠٤ .

(٤٢) م . ن . ص : ٣١٨ .

خصوا به الجنة وهو الذي
مضجعه القتاد والقض
والحب في الجنة ما شانه
ولا اذى فيها ولا بغض
القوة للنار وان ارمضت
اقدامه المواطىء الرمض
وليتلقفه شواظ اللظى
وليتلقهم بعضه البعض
فالارض ان كانت جحيما له
وكان فيها تهنا الارض (٤٣)

ينهي شفيق المعلوف كتاب عبقر بنشيد يمجد فيه الحب . فيقول ان الجحيم بحاجة الى الحب اكثر مما هي الجنة ، لانه يحول الجحيم هناء ، ويحرك رفات الاموات . ولكن المعلوف لم يستطع ان يرى في الاصنام سوى اوهام ، وفاته ان الصنم تجسيد عيني لحقيقة مطلقة ، كامنة في اللاوعي الانساني . وهي اكثر صدقا من الحقيقة العلمية ، لانها رمز ، والرمز تجسيد لحقيقة نفسية مطلقة . كما فات المعلوف التفريق بين الاسطورة والخرافة ، لانه لم يدرك اهمية الرمز . فالقصة التي تظهر وكأنها غير واقعية لانها تروي احداثا غير عادية ، وغير مألوفة ليست بالضرورة خرافة . فهي اسطورة تحمل مدلولات مطلقة وتعبر عن الحقيقة الكلية اذا عالجها الدارس بنظرة رمزية تكشف الابعاد التي تحملها . ولكن من يتجاهل التفسير الرمزي فلا يرى سوى الحادثة الخارقة منقطعة عن اي معنى غير مباشر ، يظن ان الاسطورة خرافة مضى زمان تصديقها بعد ان انتصر المنطق العلمي في الانسان .

ولكن ظاهرة هامة تؤكد وجودها في هذا العصر ، وهي ان الانسان عاد ـ وبحماس كبير ـ الى الاسطورة وعدها محور الادب . وليس الادب الاسطوري الحديث منقطعا عن الواقع يعيش في عالم غيبي خاص به ، بل هو كما يراه النقاد الاسطوريون ـ وبخاصة نورثروب فراي «شرع هذا المذهب النقدي ـ قمة الالتزام الاجتماعي والانساني (٤٤). وهذا ما قرره النقاد الرومنطيقيون الالمان منذ مطلع القرن التاسع عشر فوضعوا الاسس التي قامت عليها الدراسات الاسطورية النقدية حتى يومنا هذا . وقد ذكرت في بداية هذا البحث ما قاله هردر حول استخدام الاسطورة في الشعر من حيث ارتباطها عضويا بالقصيدة ليس على سبيل جهد واع لملء فراغ ، لان الاسطورة في الشعر ليست مجرد بناء قصصي بل هي حياة القصيدة (٤٥) .

من هنا اطرح السؤال : كيف افاد شفيق المعلوف من الاسطورة في عبقر ؟ انطلق للاجابة عن هذا السؤال بسؤال اخر : الى ما يهدف المعلوف في استخدامه الاسطورة في شعره ؟

يقول المعلوف في مقدمة عبقر :

فاساطيرنا العربية ، لم يصلنا منها غير القليل ، وهو على قلته مشوّه مبتور ، ولكنه لا يخلو من مغاز غامضة ، وجب علينا سبر اعماقها وارجاعها الى اصولها وشرح رموزها. وهذا ما عملناه في شعر عبقر ، فالاساطير التي لا ترمز الى فكرة خلقنا لها الفكرة التي نخالها صالحة لها، وماكان منها ذا رمز جلونا رموزه وتبسطنا في تصوير مراميه .

وبعد ان طبعنا «عبقر» بست (كذا) اناشيد عام ١٩٣٦ اجتمع لنا من المادة ما اعاننا على زيادات جديدة كلها اسطورية بحت، فجئنا اليوم نطرحها بين ايدي القراء في اثني عشر نشيدا .(٤٦)

يتضح مما تقدم ان شفيق المعلوف كان يهدف الى تعريف قرائه بالاساطير العربية التي جاء ـ ما وصل الينا منها ـ مشوها مبتورا . ويشير المعلوف الى انه يجب عليه ان يسبر اعماق هذه الاساطير ويرجعها الى اصولها ويشرح رموزها ، وكأنه يقصد الى كتابة دراسة منظومة حول الاساطير العربية . وتتوفر له مواد جديدة فيضيف اناشيد ستة جديدة فينفي امكان ولادة القصيدة ولادة عضوية ،ويغدو الشعر صناعة . اي ان شفيق المعلوف كان يؤلف واعيا مع ان الشعر الاسطوري رؤيا تتخطى الوعي ، يدركها الشاعر بحدسه فتأتي صورة رمزية عينية مطلقة . فالشعر ليس مجموعة مواد تتوفر للشاعر فينظمها ، وكلما حصل على مادة جديدة اضافها ، بل هو اشراق تفرض فيه الرموز ذاتها على الشاعر ، فتولد الصورة الرمز ولا تصنع .

بيروت

---

(٤٣) م . ن . ص : ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٤٤) Northrop Frye , Anatomy of Criticism (Princeton , 1957) , P . 99 .

(٤٥) Encyclopaedia of Poetry , P. 541 .
يقول فيليب ويلرايت في مقاله « الاسطورة » ان ما يقوله هردر يعرفه كل شاعر مجيد .

(٤٦) عبقر ، ص : ١٠ ـ ١١ .

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحواء	د . زكي مبارك
من ادبنا المعاصر	« «	التكسب بالشعر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خوري	سيمون دو بفوار أو مشروع الحياة	فرانسيس جانسون
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وتبقى الكلمة	صلاح عبدالصبور	بابا همنغواي	ا . ا . هوتشنر